

قا بيل وها بيل.. صراع الخير والشر



1- قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ زَبَدًا ابْنَادِيْهِمْ آدَمَ بِرَالْحَقِّ) (المائدة/ 27)، هو دعوة لسرد القصّة كما هي بلا تحرير ولا زيادة ولا نقصان، أي الطلب من النبي (ص) أن يتعدد عن الحدث كما حدث.

وهذه لفته قرآنية في ضرورة تحرّي الدقة في النقل لأيّة واقعة أو حدث أو قصة أو خبر، لأنّك لا تستطيع أن تعطي حكمًا دقيقاً على ما تسمع إلا بعد أن تكون الواقع بالنسبة إليك دقيقة.

2- القصّة ذات مشهدتين: مشهد عبادي يتعدد عن تقريب القرابان¹ ومشهد حواري يتصاعد فيه الحديث إلى نقطة الذروة ووصول الصراع إلى نقطة القتل.

- المشهد الأوّل:

ويخلصه لنا قوله تعالى: (إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاتِهِ فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ) (المائدة/ 27).

وكما تذكر بعض التفاسير، فإنّه (ها بيل) كان قد تقرّب بكبش سمين، فيما تقرّب (قا بيل) بحرمة من سنبل القمح، أي أنّ (ها بيل) قدّم أفضل ما عنده، وقدّم أخوه أدنى ما عنده، وبيدو أنّ قربان كلّ

منهما يدل على نفسية وشخصية كل منهما، وربما كان بإمكان (قايل) تقديم كيش سمين كما فعل أخيه، لكنه بخل وقبض يده ناسياً أزمه يتعامل مع الله الذي يجب أن لا يدخل معه بشيء، لأنه واهب ورازق كل شيء، وهو - أي الله تعالى لا يناله لا من الكبش ولا من القمح شيء. ففي أصحیات الحج يريد الله للحج أن يصل قربانه إلى الحياة والقراء: (لَنْ يَنْتَالَ اللَّهُ لُجُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكَنْ يَنْتَالُهُ الْتَّقْوَى مِنْ الْمُتَّقِينَ) (الحج/ 37). وهذا هو الشرط الأول في القربان (إِنَّمَا يَنْتَقِبُ اللَّهُ مِنَ الْمُمْتَقِينَ) (المائدة/ 27).

ولا يخفى عليك، أن علاقة التقوى - وهي طلب رضا الله - بالقربان، علاقة تقدير لمقام الله تعالى من جهة العبد نفسه، وأنت تعرف من خلال تجاربك، أن من يحب أكثر يقدم أكثر، إن كان بإمكانه ذلك، ولذا فالبخل مع الله هو بخل في عطاء الله (وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ) (الحديد/ 7)، وهو علامه الاستهانة بمقام الله عز وجل.

- المشهد الثاني:

ويليه قوله تعالى: (قَالَ لَأُقْتُلَنَّكَ) (المائدة/ 27)! (أي قول قايل).

- (قَالَ إِنَّمَا يَنْتَقِبُ اللَّهُ مِنَ الْمُمْتَقِينَ) (المائدة/ 27)، (وهو قول هابيل) الذي أضاف: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِرَبِّ اسْطِي يَدِي إِلَيْكَ لَأُقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (المائدة/ 28).

هذا المشهد الحواري المقتضب يلخص لنا هوية الأخرين وطبيعة كل منهما الفكرية والنفسية. (قايل): حسود، حقود، انفعالي، يحكم غريزته، ويحاول أن ينفع عن حسده وحقده بقتل أخيه، وهو إلى ذلك جاهم لا يعرف أن القبول وعدم القبول بيد الله لا أخيه، فلا ذنب له (هايل) بقبول الله لقربانه وعدم قبوله لقربان أخيه. وقد يكون عالماً بذلك لكن حسده أعماه فلم يعد يبصر نور الحقيقة وهو ساطع. أمّا (هايل) فيظهر لنا: عارفاً بما، ومتيقناً أن القبول مشروط بالتقوى، أي أن يكون العمل خالصاً وابتغاء مرضاته، وهو لا يتعامل بطريقة رد الفعل الاستفزازية، وإنما يحكم عقله ودينه في النظر إلى الأمور. فهو لمعرفته أن القتل عند الله شنيع لم ينسق إلى مقاتلة أخيه.

- دروس القصة (أوجه المقارنة):

هذه القصة مرشحة أن تكون بين أي أخرين أو صديقين أو إنسانين آخرين، وما يمكن التقاطه منها، هو:

- 1- الإيمان ليس مجرد فكرة في الداخل، وإنما هو عمل في الخارج.
- 2- (الإيمان) والحسد) لا يحتمان لأحدهما نقيمان، فالمؤمن يتمدنّى الخير للناس والحسد يريد زواله عنهم، ولذا جاء في الحديث: "الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب". فإن تكون مؤمناً يعني أن تحب للناس ما يحبه الله لهم.

3- كظم الغيط، وعدم الانجرار مع الانفعال بال موقف الاستفزازي، وعدم التعامل بالمثل مع القدرة عليه، ليس ضعفاً ولاً انهزاماً، بل يرمي إلى قوة الإرادة والتحكم بالانفعالات الغريزية، ودليل على قوة ورثة الشخصية، ووسيلة من وسائل الارتفاع والتسامي على موقف الانسياق أو تلبية نداء الانفعالات الحادّة.

4- الحوار العقلاني يعني تحذّب استخدام لغة العنف واللجوء إلى القوّة طالما أنّ القضية ليست قوة في مواجهة قوة أخرى، أو منازلة في حلبة صراع، وإنّما هي نقاش بالعقل والحكمة الحسنة وصولاً إلى الحقيقة، فالعنف في مثل هذه الحالات هو منطق الضعفاء الانهزاميين الذين لا يريدون الاقتناع رغم أنّ الحجّة واضحة، كما هو منطق (قا بيل).

5- موقفنا من شخصيتي القصة هو الانحياز إلى جانب الضحية (ها بيل) لأنّنا نؤمن ببراءته، وسلامة نبّته، ونبيل موقفه، وابتعاده عن إثارة غضب إِنَّ في قتل النفس المحترمة التي لا يجوز قتلها إِلا بالحقّ. ونعتبر موقف (قا بيل) هو موقف كلّ الطغاة الذين لا يفهمون سوى منطق القوة والعنف والقتل والتصفية، هو منطق مرفوض لأنّه يعبر عن حالة حيوانية افتراسية، ليس لها استعداد للتفاهم وال الحوار. فموقف (ها بيل) هو موقف الخير واللعنف وإرادة السلام، وموقف (قا بيل) موقف الإرهاب والفساد والتروع.

- تطبيقات القصة العملية:

إنّ حالات الصراع بين (الخير والشرّ).. بين صاحب النعمة والمحروم منها، بين الشبان والفتيات كثيرة، ومن ذلك:

قد ينتقم تلميذ من تلميذ آخر لأنّه متفوّق في فصله، ولأنّه يحظى بتقدير واعتبار معلميه به، والحال أنّ لداعي للانتقام وترتيب الأثر، فهذا الطالب المتفوق قد بذل جده، وحصل على النتيجة المميزة أو العلامات العالية، ولو بذل الطالب المنتقم، أو الراغب بزوال هذه النعمة عن زميله، جده وجده لوجد، وحصل على نتيجة مقاربة أو مماثلة أو أكبر منها.

وقد ينتقم شاب من شاب آخر لأنّه حصل أو تعرّف على فتاة طيبة من أسرة كريمة، وقد وافق أبوها على تزويجها منه، وكانت قد سبقاً أن رفضاً طلب يد الشاب الآخر لحسابات وقناعات خاصة بهما وبابنتهما، وهنا يحاول الشاب المرفوض أو المصدود أن ينفّس عن صدّه بالانتقام من الشاب المرحّب به المقبول من تلك الأسرة.

ولو فكرّ الشاب الذي يفكّر بالانتقام لرأى أنّ الشاب المقبول لا ذنب له في الأمر، فهو قد أتى البيتَ من بابه واستُقبل بترحاب واحترام لأنّهم رأوا فيه المواصفات التي يطلبوها لزوج ابنتهما، ولم يروها في الآخر، أو كانت لهم ميراثهم الأخرى، لكنّه الحسد أو الحقد الأعمى الذي لا يدع صاحبه يرى بعيوني عقله بل بعيوني غريزته الهائجة، وذاته التي يشعر أنّها انتُقصت.

وربّما ينتقم شخص من أحد أصدقائه لأنّه تقرّب إلى صديق آخر وجد فيه الصحبة الحسنة، الكريمة،

الصالحة، والمعشر اللطيف، وابتعد عنه لأنّه لم يره كذلك، فيحاول الانتقام من الشخص المقرب الذي يعتبره مزاحماً له، بأن يسيء إلى سمعته، ويقول فيه قوله جارحاً ليحمل صديقه الذي جاوه على تركه وهجرانه، وهو عدوان على إنسان بريء، كما تلاحظون.

وقد تنتقم فتاة من فتاة أخرى، وربّما كانت صديقتها أو قريبتها أو زميلتها، لنفس السبب في المثال الأسبق، خاصة إذا تقدّم شاب لخطبة الأولى ثمّ عدل عنها إلى الثانية، وهي لا علم لها بالحادثة السابقة على خطبته لها، فتتجذّب الأولى على الثانية في تشويه صورتها في نظر الخاطب بشكل أو باخر، وما ذاك إلا لأنّها ترى في الفتاة الأخرى غريمتها ومنافستها، وربّما تظنّ - تحت تأثير حالة الحسد الشديد - أنّها سرقته منها، وبدلاً من أن تتعاتب أو تحاسب الخاطب تعاقب الخطيبة البريئة، كما عاقب (قا بيل) (ها بيل) وهو بريء.

فهذه الحالات أو التطبيقات (القابلية) - نسبةً إلى قا بيل - تصدر من نفوس أعمّها الحسد وسدّ منا فذ تفكيرنا فلا ترى إلا ظلمة الانتقام.

وحتى نخرج القصة من إطارها التاريخي، حيث أنّها وقعت في فجر البشرية، لابدّ ملاحظة هذه التطبيقات وأمثالها، ولابدّ لكلّ شاب وفتاة يقرآن أيّة قصة من قصص القرآن، خاصة النماذج المتقابلة، أن يطرحوا السؤال التالي:

- لو كنتُ أحدهما، فمن سأكون: قا بيل أم ها بيل؟ أو أيّ الموقفين يمكن أن أتخذ، موقف العنف أم موقف الحوار؟ وبذلك يمكن أن تختبر شخصيتك فيما إذا كنت تحبّ أهل الخير أو أهل الشر.

الها مش:

1 - يبدو - كما في بعض التفاسير - أنَّ آدم (ع) قد علّم ولديه أن يتقرّبا في أعمالها أو نذورهما إلى الله تعالى بتقديم صدقة معينة تسمّى (القربان) وهي مأخوذة من القرية إلى الله، ويراد بها قبول الله لعمل معين.